

القراءة غير التكاملية للنصوص القرآنية

"دراسة بلاغية"

"الإكراه في الدين مثالا"

د . سمير يوسف عليوه (*)

قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْنَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿

المقدمة :

ليست قراءة النص القرآني كقراءة النصوص الأخرى منظومة أو منثورة، ومن ثم فلا مجال للقراءة التي أوحى إليها النص القرآني إذ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) فهل هناك أبلغ من هذا التمثيل التصويري لندم هذا النوع من القراءة؟

وكذلك قراءة وفقه الأحكام القرآنية فقها جامدا كما في الأمر بذبح البقرة إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) إذ أصاب الكثير في فقههم للدين عامة وللقرآن خاصة ما أصاب فقه اصحاب البقرة في تنفيذ واجب ذبح البقرة، وتشبثوا بما ليس من

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة حلوان .

(١) الجمعة: ٥.

(٢) البقرة: ٦٧ - ٧٢.

خصائص الإسلام في شيء، بل وحدث ما هو أخطر من ذلك إذ شابهاوا المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ . كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(١)، فالمقتسمون وإن تعددت فيهم أقوال العلماء اللغويين والمفسرين والبلاغيين إلا أنهم أولئك الذين جعلوا القرآن مقسمًا فما وافق هواهم منه أخذوا به، وما لم يوافق هواهم تركوه، وليسهل عليهم ذلك الاقتسام جعلوا القرآن أعضاء — من التعضية — بمعنى التفرقة والتجزئة، وكما نهينا عن حمل القرآن وفقهه بالطريقتين السابقتين نهينا مشابهة أولئك الذين عضو القرآن تعضية وفرقوه واتخذوا آياته شواهد لما يدعون إليه من مذاهب وأهواء بدلاً من الانطلاق منه كله بوصفه قرآنًا واحدًا لا يقبل التعضية ولا التفريق ولا التجزئة وإن نزل القرآن مفردًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾^(٢)، وبذلك انتشر النظر الجزئي في آيات الكتاب الكريم، بما لا يؤدي إلى إدراك المناسبات والروابط وشبكات العلاقات في المحيط القرآني — كله — وبالتالي فقد غاب التفكير في أثر الوحدة التكاملية القرآنية في شتى الجوانب الإنسانية، ولذا لم تسلط عليها أضواء كافية يمكن أن تلفت الأنظار إليها بمثل القوة التي تلتفت بها إلى الدليل الجزئي المباشر، بل لا بد أن تكون قراءة تكاملية تدبرية.

فهل للبلاغة من دور في بيان الوحدة البنائية والتكاملية للنصوص القرآنية؟

إن "نظرية الوحدة البنائية التكاملية للنصوص القرآنية لا تقل أهمية وخطورة عن نظرية النظم البلاغي، إذ يشكلان حجر الزاوية في المنظومة الداخلية التي أودعها الله آيات القرآن لبيان دورها في تقدم ورقي المجتمعات الإنسانية، ولكي تؤتي قراءة النص القرآني ثمارها فلا بد من تدبر النص من خلال القراءة التكاملية للنصوص؛ لتحقيق الوحدة البنائية البلاغية للنص القرآني، ولطالما دندن علماؤنا كابن حزم الأندلسي وعبد القاهر الجرجاني، وأبي بكر بن العربي والشاطبي وغيرهم حول بنائية القرآن التكاملية تحت عناوين مختلفة، فتارة يسمونها النظم، وتارة الترتيب، وأخرى

(١) الحجر: ٨٩ — ٩١.

(٢) الإسراء: ١٠٦.

بالاتساق أو المعمارية أو البنائية مباشرة، ومن أعظم وأجلى ما كتب حول بنائية القرآن تلك الورقات الوضيئة التي كتبها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم "النبا العظيم".

ومن هنا فثمة أسس وقواعد تؤسس للقراءة التكاملية للنص القرآني منها:

١- الارتباط الفني والبلاغي بين الآيات والجمل القرآنية للموضوع الواحد في سورة القرآن كلها^(١).

٢- تصور البيئة - البشرية والزمانية والمكانية والنفسية والفكرية الفردية والاجتماعية للنص القرآني.

٣- التكرار اللفظي في القرآن هو تأسيس لمعنى جديد وليس لمجرد التأكيد فقط.

٤- الإحكام في القرآن هو الأصل، ومن ثم فعلى الباحث في القرآن، أو في الأحكام الجمع بين النصوص التي يبدو في ظاهرها التعارض^(٢).

٥- الوقوف على أوجه النص القرآني المتعددة الدلالات والمتنوعة الأغراض والأهداف البيانية والتربوية والتعليمية وغيرها، ليجد كل من يقرأه ما يناسب حالته^(٣).

٦- معرفة الحكمة من وراء التداخل الترتيبي بين القرآن مكي التنزيل ومدني التنزيل^(٤).

٧- العلاقة بين الآيات وخواتيمها.

٨- الابتعاد عن فكرة الترادف في القرآن.

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله - عز وجل - عبد الرحمن حسن حنكة الميداني ص ١٣، ط

دار القلم دمشق.

(٢) نفسه ص ١٣٩.

(٣) نفسه ص ٤٥ و ٤٦.

(٤) نفسه ص ١٨٥، و ١٨٦.

٩- تدبر الألوان البلاغية المتنوعة والغرض الفكري في النص القرآني.

١٠- تدبر الملاءمة بين الأسلوب والنظم البياني والهدف من النص القرآني^(١).

منهج البحث :

أثر البحث المنهج التكاملي في العرض التحليلي؛ ليجعل من العناصر البلاغية خادمة للمقاصد القرآنية؛ لأن المواد اللغوية هي اللبنة الأولى التي تُشكل العمود الفقري للنظم القرآني، وإبراز مقاصد الألفاظ، وإظهار وظائفها وتسجيل المعاني الناتجة عن العلاقات بين الكلم وفق قانون النحو وقواعده هو عين النظم وجوهره، الذي نادى به عبد القاهر الجرجاني؛ وبذلك تكون أساليب البلاغة وأدواتها وسائل يتوصل بها إلى الأغراض القرآنية من خلال النظم الكريم فتلك خدم لها، وليست الآيات خادمة لأساليب البلاغة وعناصر أبحاثها.

وبهذا المنهج تسلم الآيات القرآنية من التجزئة والتقطيع، وينكشف شيء من أسرار جمالها وبدائع نظمها، وأرى أن هذا المنهج هو الأقوم والأليق بكلام الله - عز وجل - ولهذا ارتضيته في هذه الدراسة البلاغية، وجعلته منهجاً علمياً في كل آية أعرضها.

الدراسات السابقة :

جاءت الدراسات السابقة مجرد إشارات مبعثرة في كتب البلاغة وكتب التفسير، وكتب شروح الحديث وفي أثناء تحري البحث عن الكتابات الحديثة وقعت عين البحث على بحث للدكتور سعد الشهراني الأستاذ المشارك بقسم العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بعنوان: "القراءة العُضوين وأثرها في افتراق المسلمين"، وبقراءة البحث وجد أنه قد وظف فقط في الحديث عن أثر الفرق الإسلامية في توجيه النص القرآني دون معالجة منه للنواحي البلاغية في بيان الأثر السيئ للقراءة العُضوين في القرآن

(١) نفسه ص ٤٩٩.

الكريم"، ولندرة المراجع واجه البحث صعوبات جمة في بيان الأثر السيئ للقراءة التعضيفية للنصوص القرآنية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في قراءة النصوص القرآنية من خلال الوحدة البنائية التكاملية لها في الموضوع الواحد إذ تشكل نجومًا يمثل النجم أو الآية منها وحدة صغرى، وحين يتم تسوير مجموعة من النجوم أو الآيات بسور تتكون السورة، وذلك يعني أن وحدة كبيرة قد تشكلت من هذه الوحدات الصغرى، ومن ثم تأتي أهمية البحث من ناحيتين:

الأولى: أنها مساهمة ومحاولة لعلاج قضية فكرية معاصرة، ابتليت بها الأمة منذ أمد بعيد ولم تجد لها فكاكًا، بل اشتدت وطأتها، واستحكمت حلقاتها على الأمة في العصر الراهن، وهي آفة الاستبداد بالرأي والتشترنم الفكري المؤدي إلى الخلاف المذموم.

الثانية: إن الدراسات أغفلت الجوانب البلاغية، ولم تتعرض لها مع أنها قضية فكرية اجتماعية ذات جذور عميقة في ضمير الأمة ينبغي البحث عن عللها وأسبابها ومعالجتها جذريًا، بإعادتها إلى الأصول: الكتاب والسنة وإلى ثوابت الأمة، ومما يؤكد ما دعا البحث عليه من القراءة التكاملية للنصوص القرآنية مجيء قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(١)، مع أحوال الأزواج والزوجات وأحكامهم في النكاح والإيلاء والطلاق والرجعة والإرضاع والنفقة والكسوة والعدة والخطبة والمتعة والصداق وغير ذلك، فهل من وجه للترابط التكاملي بين الصلاة وهذه الأحوال؟^(٢).

(١) البقرة: ٢٢٤ - ٢٣٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج ١، ص ٤٤٩، والبحر المحيط لأبي حيان دار الفكر بيروت، ج ٢، ص ٢٣٩، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج ٢، ص ١٥٥، إرشاد العقل السليم لأبي السعود دار إحياء التراث العربي بيروت، ج ١، ص ٢٣٥، والمنار، ج ٢، ص ٤٣٦، وزهرة التفاسير ص ٨٣٦ - ٨٣٧، والتحرير والتنوير لابن عاشور الدار التونسية ج ٢، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

وقد اقتضت الدراسة أن تأتي الخطة التفصيلية للبحث من تقديم ومدخل ومبحثين وخاتمة:

التقديم: عبارة عن وصف للبحث بين أهدافه ومنهجه وإشكاليته والدراسات السابقة، وحديث مقتضب عن مفهوم القراءة التعضيفية بشكل عام، وهو مدخل طبيعي للبحث، حيث تبرز فيه مكانة القراءة التكاملية.

المبحث الأول: مفهوم القراءة التعضيفية لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي "للقراءة التعضيفية".

المبحث الأول: القراءة التعضيفية بين اللغة والاصطلاح:

التعضيفية واللغة:

قال الراغب: وعضون: جمع عضة، كقولهم: ثبون وظبون في جمع ثبة وظبة، ومن هذا الأصل العضو العضو، والتعضيفية: تجزئة الأعضاء، وقد عضيته قال الكسائي: هو من العضو أو من العضة، وهي شجر.

قال: وأصل عضة في لغة عضيته لقولهم: عضيته، وعضو في لغة: لقولهم: عضوان^(١).

وقال ابن فارس: العين والضاد والحرف المعتل أصل واحد يدل على تجزئة الشيء، من ذلك العضو والعضو، والتعضيفية: أن يعضي الذبيحة أعضاء، والعضة: القطعة من الشيء، تقول: عضيته الشيء أي وزعته، قال رؤبة: أي بالمفروق، قال الخليل: وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(٢)، أي عضة عضة، ففرقوه، آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والاسم منه التعضيفية.

(١) المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، مادة عضو.

(٢) الحجر: ٩١.

ومنه الحديث: "لا تعضيه في ميراث" أي لا تقسموا ما "لا" يحتمل القسم كالسيف والدرّة وما أشبه ذلك^(١)، وإلى هذا المعنى أشارت معاجم اللغة^(٢).

المعنى الاصطلاحي:

لقراءة التعضية قراءة اصطلاحية فلا بد من الوقوف على تعريف المفسرين لها إذ يقول ابن عباس في تفسير عضين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، عضين "فرقاً" جزءه فجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقال بهذا ابن كثير والبغوي وغيرهما^(٣)، وقيل: جعلوه أصنافاً يصرفونه بحسب أهوائهم، فقالوا: تارة هو سحر وتارة أخرى كهانة وتارة أساطير الأولين، وتارة هو مفترى، وغير ذلك، ليصرفوا الناس عنه وأما ابن جرير فقال: وجه قائلوا هذه المقالة "عضين" إلى أن واحداً عضو وأن "عضين" جمعه، وأنه مأخوذ من قولهم عضيت الشيء تعضية: إذا فرقته كما قال روبة: "وليس دين الله بالمعضى" يعني بالمفرق وكما قال الآخر:

وعضي بني عوف فأما عدوهم فأرضى وأما العز منهم فغبرا

يعني بقوله: "وعضى" سباهم وقطعاهما بألسنتهما^(٤).

إذن من خلال التزاوج بين التعريف اللغوي وتعريف المفسرين يمكن الخروج بتعريف للتعضية فنقول هي: قراءة جزئية انتقائية للنص القرآني وغيره تؤدي لتفكيكه، فلا تستوعب معانيه ومقاصده كاملة.

(١) مقاييس اللغة: لابن فارس مادة عضو.

(٢) مجاز القرآن، ج١، ص ٣٥٥، وغريب القرآن لابن قتيبة، ج١، ص ٢٣٩، والصحاح في اللغة، ج١، ص ٤٧٨، ولسان العرب مادة عضض وجمهرة اللغة، ج٢، ص ٧، والمحيط في اللغة لابن عباد، ج٢، ص ١٠٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٥٤٩، وتفسير البغوي، ٣٩٣.

(٤) جامع تأويل أي القرآن، ج٢، ص ٣٢١.

المبحث الثاني: الإكراه في الدين :

يتناول البحث فيه قضية الإكراه في الدين من ناحيتين:

الأولى: الآيات التي تتناول دلالة الإكراه.

والثانية: الآيات التي تناولت أسباب ووسائل الإكراه.

ولما كانت عناصر عملية الإكراه مكونة من:

أولاً: المكره عليه "الدين".

ثانياً: المكره "الفاعل".

والمكروه "مفعول".

وطريقة الإكراه.

فسيمثل البحث لكل منها بمثال خشية الإطالة.

أولاً : قضية الإكراه في الدين:

يتناول البحث هذه القضية من خلال القراءة التكاملية لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، مع غيره من الآيات التي تنفي القدرة عن الرسول ﷺ - وغيره في الإكراه على الدين كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ.

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) يونس: ٩٩ - ١٠٠.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّن عِندِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ
النَّارَ مَكْمُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ
وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ
اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

كما يتناول البحث بعضًا من آيات وسائل الإكراه وأسبابه وأحواله.

فقوله تعالى: ﴿هَلَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. يقر حقيقة
من الحقائق الدينية هي: أن الإنسان حر في اعتقاده وتفكيره وعمله الذي ليس له
أضرار متعددة مباشرة أو غير مباشرة؛ ولكن عليه أن يتحمل نتائج تصرفاته ورفضه
للحق ورفضه سبل الهداية الآجلة والعاجلة؛ لأن الله — تعالى — آتاه في أصل تكوينه
حرية الاختيار، بعد منحه أدوات المعرفة، "وقد جاءت هذه الحقيقة في القرآن الكريم
وفق منهج حركي تربوي تكاملي في النصوص القرآنية مع مراحل التنزيل ومقتضياتها
وأسبابه" (٤)؛ ولكي نتحقق تلك الحقيقة "حرية الاعتقاد" فلا تفصل الآية عن سياقها في
السورة، وعن بقية الآيات التي تتحدث عن القتال في الإسلام، ليرد على من يستفهم
قائلًا: ما بال آيات في القرآن؟، ولكي يخرج العلماء المسلمون من الافتراء بأن
الإسلام انتشر بحد السيف قالوا بنسخ هذه الآية، دون فهم وتدبر لها إذ إنها معللة بعلّة

(١) هود: ٢٧ — ٢٨.

(٢) النحل: ١٠٦.

(٣) النور: ٣٣.

(٤) قواعد التبدير الأمثل لكتاب الله — عز وجل — عبد الرحمن حنبكة، ص ٨٣، دار القلم دمشق.

لا تقبل النسخ فهي تبين أن الدين الحق — الإسلام — لا يقبل الإكراه، ولا يجيزه؛ لأنه لا يحتاج إليه قط، لجلاء بنيانه، ووضوح دلائله ﴿فَقَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وما بال الآيات التي تنفي عن الرسول — ﷺ — قدرته على الإكراه أو الهداية إذ خاطبه ربه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١) وغير ذلك من الآيات التي تنفي الإكراه من قبل الرسول — صلى الله عليه وسلم — لدخول الدين، بل وتحدد وظيفته ومهمته في البلاغ عن الله؛ لأن الله لم يرد خلقه مكروهين على الدين، فكيف يكرهم المبلغ عنه؟ ومن ثم فإن مشروعية القتال ليست للإكراه على العقيدة؛ لأنها أمر باطني لا يمكن الإكراه عليه، إنما كانت للإلزام بتمكين وتقرير حرية العقيدة، كذلك حرية الدعوة، مع إقامة النظام الذي يحقق للإنسان حريته تجاه الآخرين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، ومن ثم يصبح هنالك فرق بين القهر على الدين، والقهر على مطلوب الدين.

وقبل التحليل البلاغي لقضية الإكراه لا بد من بيان المقصود بالإكراه فهو: حمل الغير على فعل لا يرى هو خيرًا في أن يفعله، أي لا يرى الشخص المكره فيه خيرًا حتى يفعله^(٢)، ثم الوقوف بلاغيًا على بعض الآيات التي تدعو لحرية العقيدة للربط بينها والآية ربطًا بلاغيًا يؤكد حقيقة حرية العقيدة ومنها:

خطاب الرسول — ﷺ — بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ^(٣)، فالاستفهام "بالهمزة" للإنكار التقريري أو التعجبي المتوجه إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئة الله — تعالى — وقيل إنكار صدور الفعل من المخاطب لإنكار كونه هو الفاعل مع تقرر أصل الفعل، ولهذا جاء بعده أسلوب القصر ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تقريرًا لما سبق من

(١) يونس: ٩٩.

(٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البضاوي، ج-٢، ص ٦٢٩، ضبط محمد عبد القادر شاهين، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٩م.

(٣) يونس: ٩٩ — ١٠٠.

أن خلاف المشيئة مستحيل، فكما لا إكراه لأحد في العقيدة بحال من الأحوال كذلك مستحيل إيمان أحد في حال من أحوالها إلا كونها ملابسة بمشيئة الله^(١)، وتقديم المسند إليه "أنت" على المسند الفعلي "تكره"؛ لإفادة تقوية صدور فعل الإكراه منه، ومن ثم تلك التقوية محل الإنكار^(٢).

فالآية تؤكد أن الإسلام لا يجيز الإكراه، بل يستكر ويوبخ كل من يكرهون الناس عليه، ومن ثم خاطب الله - تعالى - نبيه، مؤكداً تلك الحقيقة فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَغَمَّيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ مَوْجًا وَاتَّخَذْتُ لَهَا كَارِهُونَ﴾^(٦).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ

(١) روح المعاني، جـ ١١، ص ١٩٤.

(٢) التحرير والتنوير، جـ ١٢، ص ٢٩٣.

(٣) القصص: ٥٦.

(٤) الأنفال: ٦٢ - ٦٣.

(٥) الشعراء: ٣ - ٤.

(٦) هود: ٢٨.

يَسَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١﴾.

وتأمل هذه الصورة البيانية لهؤلاء المعرضين عن التذكرة في قوله تعالى:
﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا
مُنَشَّرَةً . كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ . كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا
أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٢).

فلماذا هذه الصورة وبهذا الأسلوب البلاغي؟

فالنص يشبه المدعوين إلى التذكرة بالحرر الهاربة من الأسد، وينطوي هذا التشبيه التمثيلي التصويري على سمات فنية منها: تشبيههم أو تمثيلهم بالحرر، وانتخابها للتشبيه يحمل مسوغه الفني متمثلاً في المسافة التصويرية الممتدة إلى أي فضاء آخر هو: تشخيص وتجسيد الطابع الوصفي للحرر بعبارة "مستنفرة"، ثم بإلحاقه بوصف آخر هو "فرت من قسورة" يصورها وهي تواجه محركاً خارجياً هو الأسد "القرآن" فأول رد فعل لها هو الاستنفار ثم الهروب، واستعارة الأسد دون غيره للتعبير عن التذكرة عدة معاني فنية منها: تميز الأسد بالشجاعة، والقوة في الانقضاض على الفريسة والتأثير فيها، ومنها أيضاً أن طابع الأسد المذكورة قد يتوفر لدى الوحش لا تتناسب مع المحرك الخارجي الذي استهدفه النص، حيث إن المحرك الخارجي هنا هو "التذكرة" ومن ثم سوف يتداعى بذهن المتلقي إلى المحرك الآخر "المشبه به" وهو الأسد، وحينئذ يتناسب طرفا التشبيه، ومن ناحية أخرى فإن الاستنفار

(١) الأعراف: ٨٨ - ٨٩.

(٢) المدثر: ٥٦.

من جانب والهروب من جانب آخر يسم الدواب الوحشية التي ألقت مناخ الفريسة وما يصطرع فيه، من هنا يحمل التشبيه بالحرر دون غيرها مسوغاته الفنية التصويرية.

ثم لننظر إلى القرآن والتذكرة فأني جانب فيها يلتقي مع الأسد؟ واضح أنه جانب القوة والهيبة التي أسبغها القرآن على النبي الأعظم محمد - ﷺ - ويذكرنا هذا بقول كعب بن زهير في قصيدته الشهيرة في مدح النبي:

حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي نجمات قبله القيل
من ضيغم من ضراء الأسد مخدرة ببطن عثر، غيل دونه غيل^(١)

أولاً: المكره فيه "الدين":

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

وبإمعان الكر البلاغي في الآية يتبين أنها تقر حقيقة هي حرية الاعتقاد بنفي الله - تعالى - الإكراه في الدين، وحمل الناس عليه حماية للداعي والمدعو، ومن ثم مجيئها بعد تقديم الأدلة المادية وإثباتها على التوحيد في آية الكرسي، ثم ما جاء بعدها في الذي حاج إبراهيم في ربه، والذي مر على قرية هامة، وقوله: ﴿... فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ...﴾ والنظم البلاغي للآية يؤكد هذه الحقيقة بمؤكدات عدة منها:

تصدير الآية بحرف النفي "لا" نفي الجنس، لقصد العموم نصاً وهي دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر وبالاختيار^(٣)، ومن ثم نصبح أمام عدة قضايا بلاغية تجاه جملة "لا إكراه في الدين".

(١) ديوان كعب بن زهير، ط أولى ١٩٨٧م، ص .

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

أولها: علاق الآية مع ما قبلها وما بعدها:

إن ما اشتملت عليه آية الكرسي من دلائل الوجدانية وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة المستقيم الشريعة باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بحل السؤال أيتروكون عليه أم يكرهون على الإسلام^(١).

ثانيها: اختلاف البلاغيين في قوله تعالى: "لا أكره في الدين" إذ قالوا:

إنها جملة خبرية، فإن كانت خبرية فهي حاكية عن حال التكوين والمراد نفي الإكراه وأسبابه على الدين والاعتقاد، ويجوز أن تكون إخباراً في معنى النهي أي: لا تكرهوا في الدين أحداً وتجبروا عليه^(٢)، لما له من آثاره السيئة على عقيدة المكره، وعليه فيكون السؤال للمكره "الفاعل" وللمكره "المفعول" أبعد الدلائل عذر في الإقامة على^(٣).

وقالوا: جملة استئنافية: ويشهد لذلك بما عقب بعده من قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرهاً وهو نهى يؤكد أن الإكراه يؤثر الأفعال البدنية وليس القلبية، وزاد ابن عاشور فوصف الاستئنافية بالبيانية فقال: استئناف بياني ناشئ عن الأمر بالقتال في سبيل الله في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤)، إذ يبدو للسامع أن القتال لأجل دخول العدو في الإسلام فبين في هذه الآية أنه لا إكراه على الدخول في الإسلام، فكانه قيل: لما لا يحتاج إلى الإكراه؟

(١) نظر الدرر، جـ، ص، والتحرير والتنوير، جـ ٣، ص ٢٥.

(٢) روح المعاني، جـ ٣، ص ١٣، وحاشية القنوي على تفسير البيضاوي ومعه حاشية ابن

التمجيد، جـ ٤، ص ٣٩٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) مفاتيح الغيب، جـ ٧، ص ١٥، وروح المعاني، جـ ٣، ص ١٣.

(٤) البقرة: ٢٤٤.

فأجيب: قد تبين الرشد من الغي، فهو نهى عن الحمل على الاعتقاد والإيمان
كرهاً^(١)، فالنفي بمعنى النهي^(٢).

إذن جيء بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أثر بيان صفات الله - تعالى -
المذكورة فيما سبق إيداناً بأن من حق العاقل أن لا يحتاج إلى الإكراه على الدين؛ بل
يختار الدين الحق من غير تردد^(٣).

مما سبق تبين أن النفي جاء بمعنى النهي أو الخبر، ومن ثم يكون السؤال إذا كان
النفي بمعنى الخبر أو النهي فلم العدول عنه إلى النهي؟

العدول أو الالتفات أو الخروج عن مقتضى الظاهر في التعبير بالخبر أو النهي
إلى النفي بالأداة "لا" النافية للجنس دون غيرها؛ لاستغراق كل ألوان الإكراه في الدين
الحق، وأسبابه ووسائله وأحواله؛ لأنه لا يحتاج للإكراه، ومن ثم كان النفي بـ "لا"
نفي لمطلق الإكراه بأحواله وأسبابه وغاياته، وكون ابتدائه، فهو مستبعد من عالم
الوجود والوقوع، ومن ثم يتبع ذلك كله نفي لمشروعية الإكراه في الدين في كل
الأزمنة وكافة الأحوال والأمكنة، ولا يجوز لأحد القيام به وإن وجد محسوساً من
بعض الأفراد، فنفي الجنس لقصد العموم نصاً، والآية دليل واضح على إبطال الإكراه
على الدين بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر
وبالاختيار.

ثالثها: تعريف الدين "بأداة التعريف" "ال" للحرص والقصر له على الدين الحق
وعليه يكون المعنى: لا إكراه في الدين في الحقيقة؛ لأن ذلك من أفعال القلوب، إذا
فعل لوجه بوجوبه، فأما ما يكره عليه من إظهار الشهادتين، فليس بدين، كما أن ما

(١) حاشية القنوي، جـ ٤، ص ٣٩٥.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي، جـ ٢، ص ١٦٢.

(٣) إرشاد العقل السليم، جـ ١، ص ٣٣١، والفتوحات الإلهية، جـ ١، ص ٢٠٩، وروح المعاني،

جـ ٣، ص ١٣.

أكره على كلمة الكفر لم يكن كافراً^(١)، وتكون "أل" في الدين للعهد، وقيل بدل من الإضافة "أي دين الله"^(٢).

رابعها: العدول "أو الخروج عن مقتضى الظاهر" عن الخطاب بلا تكرهوا على الدين أحدًا إلى الجملة الاسمية "لا إكراه في الدين" للمبالغة في نفى الإكراه بشئ ألوانه^(٣)، ولا بد أن يبقى هذا السلوك إن وجد ولا يتجدد في المجتمع.

وكذلك العدول عن "على الدين" إلى "في الدين" ليؤكد أنه إذا كان النفى للإكراه على الابتداء لدخول الدين أو لاعتناق الدين، فبالأولى لا يكون بعد اعتناقه والدخول فيه، بل إن هناك دلالة أعمق لاستخدام "في" بدلاً من "على" وهي الإفادة بأن الدين في القلوب، ويؤكد قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الإيمان ما وقر في القلب وصدق العمل"، وفي الوقت نفسه تحذير من الأخذ بالشكليات فربما أجبرتم أحدًا على الدين فأدى ظاهره، ولكنه في قلبه غير معتقد، وتدعمها الآية ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وكذلك ما ظهر من المنافقين الذين كشفهم الله عز وجل لنبيه.

وجملة "قد تبين الرشد من الغي" جاءت تأكيدًا وعلة لانتفاء الإكراه في الدين؛ لأن تبين الرشد من الغي تعمل على دخول الدين طوعًا وكرهًا^(٤)، وهي "استئناف بياني جاء جواباً لسؤال تقديره" إذا كان الدين شيئاً طيباً فلماذا نفى الجبر أو الإكراه عليه ليتمتعوا بهذه النعمة؟

والجواب: "قد تبين الرشد من الغي" ومن ثم فلا داعي لممارسة الإكراه؛ لأن من يمارس الإكراه من لا دليل له ولا برهان.

(١) التبيان، جـ ٢، ص ٣١١.

(٢) روح المعاني، جـ ٣، ص ١٣.

(٣) حاشية القانوني على البيضاوي، جـ ٥، ص ٣٩٥.

(٤) نظم الدرر، جـ ١، ص ٥٠٠، ومفاتيح الغيب للرازي، جـ ٧، ص ١٤، والبحر المحيط، جـ ٢،

ص ٢٨٢.

إذن جملة "قد تبين الرشد من الغي" جملة سببية تبين سبب عدم إكراه أحدًا على الدين، فمن أين أتى الذين يدعون أن الإسلام نشر بالسيف؟^(١)، وصدرت الجملة التعليلية بقدر لإفادة التحقيق وزيادة تقرير مضمونه^(٢).

وجملة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، استعارة تصريحية تمثيلية للدلالة على أن الإيمان بالنسبة إلى السعادة بمنزلة عروة الإناء بالنسبة إلى الإناء وما فيه^(٣).

إذن هي تمثيل تصويري للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوسة أي شُبّهت حياة المؤمن في ثباته على الإيمان بهيأة من أمسك بعروة وثقى من حبل وهو راكب على صعب أو في سفينة في هول البحر وهي هيأة معقولة شُبّهت بهيأة محسوسة^(٤).

وجملة "لا انفصام لها" استئنافية تتضمن التعليل لما قبله^(٥)، وهي في موضع الحال من العروة يؤكد لاستيثاق العروة، فهي تحمل أولاً، وثانياً نفى الضد، وفي الإتيان بالوصف المضاد طباق يزيد المعنى بياناً، إذ بضدها تتميز الأشياء، وفي نفى الانفصام نفى للانفصام من باب أولى، إذ القصر أدنى من الفصم فإن إمكان الاتصال بعد الانفصال في الأول وارد بخلاف الثاني فهو انفصال لا اتصال بعده، ونفي الأدنى يستلزم نفي الأعلى، ومن ثم جاءت بلا التي لنفي الجنس لاستغراق كل ألوان وأحوال وأسباب وهيئات الانفصام.

خامسها: الطباق في قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وقوله: "آمنوا وكفروا" وقوله: "الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ"، يجسد بالمقابلة لوحة تصويرية لما سبق.

(١) حاشية القونوي، جـ ٥، ص ٣٩٥.

(٢) روح المعاني، جـ ٣، ص ١٣.

(٣) الميزان، جـ ٢، ص ٣٤٤.

(٤) الكشف، جـ ١، ص ٣٤٣، والتحرير والتنوير، جـ ٣، ص ٢٩.

(٥) فتح القدير، جـ ١، ص ٢٧٥، والبحر المحيط، جـ ٢، ص ٣٨٢.

بقي أن نتأمل الجانب التصويري في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فعندما تمعن النظر في الآية وتربطها وما بعدها، تواجهك أكثر من صورة فنية هي مثل صورتَي "النور والظلمات" في الآية التي تلحقها ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ حيث ترمز هاتان الصورتان إلى الإيمان والكفر، أو ترمزان إلى "الرشد" و"الغي" وعلاقتهما بالآية التي نتحدث عنها هي "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، حيث إن "الرشد" و"الغي" يجسدان مفهومين متقابلين يشيران إلى معنى الإيمان والكفر، وحيث إن النص حول مفهومي الإيمان والكفر، إلى رمزين هما: الرشد والغي، ثم حول الرمزين الأخيرين "الرشد والغي" إلى رمزين فنيين أوسع هما "النور والظلمات".

وبهذا التحويل المزدوج للدلالات المتنوعة للعبارات، نكتشف مدى الأهمية الفنية في هذه الصياغة وحين ندع هذه الصورة المباشرة "الرشد" و"الغي" مقابل الإيمان والكفر، والصورة غير المباشرة "النور والظلمات" عبر عملية التحويل إلى المعاني التي قد تكون قريبة من ذهن المتلقي عبر تدرج تعبيرى بديع، الإيمان رشد والكفر غي وهو الضلال، ثم يتدرج إلى صورة أوضح وهي الإيمان نور والكفر ظلام، مع الاحتفاظ بالفضاءات الدلالية والبلاغية التي تحملها كل هذه المدلولات، ونتجه إلى باقي الصور في الآية الكريمة، نواجه صورتين رمزيتين: هما "الطاغوت" حيث ترمز إلى الشيطان أو بدائله من السحر والكهانة والوثنية، ومطلق القوى الانحرافية، ثم الرمز القائل ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، وهذا الرمز الأخير هو ما نعتمد لفت نظر المتلقي إليه الآن، فنقول: إن هذه الصورة ذات أطراف متنوعة، ففيها إشارة إلى "العروة الوثقى" وإشارة إلى عدم انفصامها، وإشارة إلى التمسك بها، هذه الأطراف الثلاثة من الصورة، بالرغم من وضوحها في الأذهان، لا بد من تفصيل الكلام فيها، نظراً لما تتضمنه من دلالات عميقة كل العمق، لا شك أن الصورة تنطق فتقول: إن الإسلام هو الاتجاه الفكري الوحيد الذي يقود الإنسان إلى الخير، بحيث يحقق

للإنسان إشباعاً كاملاً لا تتخلله إحباطات أو عقبات، لكن: لنسر كيفية الصياغة التصويرية لهذا المعنى.

لقد استعار النص لمن يلتزم بمبادئ الإسلام، صورة من يستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فالعروة هي المقبض لكل أداة مثل الإبريق أو الدلو أو سواهما من الأدوات التي تحتاج إلى مقبض يمسك به الإنسان تلكم الأداة، فالمقبض نفسه لا بد من توفره أساساً، وإلا لما أمكن أن يفيد الإنسان من الأداة التي يريد أن يمسكها، ولكن الأهم من ذلك هو أن يكون المقبض من الإحكام والتماسك والقوة بحيث لا يتعرض إلى لكسر، أو السلخ الذي يؤدي إلى فصل المقبض عن الأداة.

وهذا ما استثمره النص، وجعله استعارة لمن يتمسك بالإسلام، لكن كيف تم هذا الاستثمار للحقيقة المذكورة؟ إن من يتمسك بالإسلام، يشبه من يستمسك بالعروة أو المقبض لأداة ما هذا المقبض يتسم بالوثاقة، أي بالإحكام أو الشد القوي جداً، وهذا ما يجعل المتمسك بالإسلام قد اتجه إلى التمسك بـ "فكر" محكم كل الإحكام، بحيث لا سبيل إلى التخلخل فيه أبداً، فكما أن العروة الوثقى لا سبيل إلى انفصامها أو سلخها من الأداة، كذلك المتمسك بالإسلام لا سبيل إلى تعرضه لأية هزات أو توترات في حياته؛ لأن معيار الإحكام للعروة يتجسد ليس في الحياة الدنيوية العابرة، بل يتجسد في الحياة الأبدية؛ لأن ما هو دنيوي وعابر يشبه اللحظة العابرة من عمر الإنسان الذي يمتد إلى سنوات، فاللحظة المتوترة من العمر لا قيمة لها حيال السنوات، كذلك لا قيمة للإشباعات الدنيوية مقابل الإشباع الخالد الذي لا يحد بحدود، وحينئذ فإن الاستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، يرمز إلى الإشباع المستمر الذي لا انقطاع له أبداً.

وهذا هو سر الدلالة التي استهدفها النص في الصورة المشار إليها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ففي هذه الآية الكريمة أكثر من صورة فينة ترمز إلى "النور والظلمات" وكذلك "الطاغوت".

إن هذه الرموز تقول: إن الله — تعالى — ولي المؤمنين، وإن الشيطان ولي الكافرين، وأن الله — تعالى — يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور، أي من ظلمات الكفر والفسق والشر إلى نور الإيمان، والاستقامة والخير... الخ، وفي مقابلة ذلك فإن الشيطان يخرج الكافرين من نور الإيمان والاستقامة والخير إلى ظلمات الكفر والفسق والشر.

هذا هو ملخص الصور المشار إليها، ولكن ما يعيننا منها هو: الأسرار الفنية الكامنة في هذه الرموز، وتتمثل فيما يلي:

فالبلاغيون القدماء يذهبون إلى أن النور والظلمات، هما تشبيهان أو استعارتان إذ شبه الله — تعالى — الإيمان بـ "النور"، وشبه الكفر بـ "الظلمات" أو أنه — تعالى — استعار للإيمان صفة "النور" واستعار للكفر صفة "الظلمات" وبالرغم من إمكانية أن يكون هذان الرمزان "النور والظلمات" تشبيهاً أو استعارة، كما ذهب قدماء البلاغيين إلى ذلك، ولكننا لا نوافقهم على هذا التفسير، لجملة من الأسباب، مناه: أن التشبيه هو مقارنة شيء بآخر بحيث تذكر فيها أداة التشبيه، كما لو قلت "الإيمان كالنور" وأما إذا حذفنا أداة التشبيه، فتكون الصورة إما استعارة كما لو قلت "نور الإيمان" أو تمثيلاً كما لو قلت "الإيمان نور".

وهذا كله في حالة وجود طرفين يذكران في الصورة وهما "النور والإيمان" أما إذا حذف أحد الطرفين، وبقي طرف واحد، وهو عبارة "النور" كما نلاحظ في الآية الكريمة، حينئذ تتحول الصورة إلى ما يسميه القدماء بـ "الكناية" وما يسميه المحدثون بالرمز، حيث إنه استخدام حديث يتناول ما هو أعم من الكناية، ويتجاوزها إلى كل ما يصح أن يكون إشارة لشيء محذوف هو: الإيمان أو الخير أو أي شيء آخر.. وأن عبارة الظلمات إشارة إلى شيء محذوف هو: الكفر أو الشر أو أي شيء آخر، ولنلاحظها من جديد عبر النص القرآني:

إن أهم ما ينبغي لفت نظر المتلقي إليه، هو: أن الصورة التشبيهية أو الاستعارية التمثيلية، وغيرها تشع بإيحاءات متنوعة، ولا تقتصر على معنى واحد، فإذا استمع

إلى لفظ "النور" أو "الظلمات" أمكنه أن يستحي ويستحضر في ذهنه جملة متنوعة من الدلالات كالإيمان والاستقامة والخير والراحة، واليقين والتوازن والاستقرار والأمن وغير ذلك، وكذلك إذا استمع إلى لفظ الظلمات، أمكنه أن يستحي ويستحضر في ذهنه جملة من الدلالات كالكفر والفسق والشر والخوف والاختلال والقلق وغير ذلك، وجاءت نتيجة انتخاب النص القرآني الكريم لألفاظه وسمح للمتلقي بالتخييل والاستحضار ونستخلص جميع المعطيات التي ينطوي عليها الإيمان بالله تعالى، وهذا ما لا يتم من خلال التشبيه أو الاستعارة، بل يتم من خلال الصورة التقابلية.

كذلك قوله: ﴿أَنْزَلِمُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾^(١).

جاء مؤكدا ما سبق من نفي الإكراه فقال تعالى على لسان نبيه نوح: ﴿أَنْزَلِمُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، بهمزة الاستفهام المفيدة لإنكار الإلزام أو الإكراه على قبول الرحمة، بدلالاتها المختلفة وإن كانت عميت على المدعويين.

وبتدبر السياق البلاغي للآية نجد:

أولاً: قوله "فعُميت عليكم" استعارة تصريرية تبعية: شبه خفة الدليل بالعمى في أن كلا يمنع الوصول إلى المقاصد فاشتق من العمى بمعنى الخفاء "عميت" بمعنى خفيت على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، ويمكن أن تكون استعارة تمثيلية بأن شبه الذي لا يعرف طرقها ومسلكها وابتغى أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية^(٢).

ثانياً: أنزلمكموها: استفهام إنكاري ينهي كل داع ومبلغ عن إلزام الآخرين وإكراههم على قبول رأيه وفكره؛ لأن ذلك يحتاج إلى قلوب لا قوالب وإكراه القوالب بلا يزرع الإيمان في القلوب، ولا يزرع الاقتناع بالرأي والفكرة، ومن ثم فالدين أو

(١) هود: ٢٧ - ٢٨.

(٢) حقائق الروح الريحان، ج، ص ٨٣ - ٨٤، وحاشية القونوي، ج-١٠، ص ٦٣.

الرحمة بدلالاتها المختلفة على الحجة والدليل والدين أيضًا لا يكون بالإكراه أو الإلزام، بل بالطوعية والرضا، إذن هو إنكار يصحبه التكذيب في المستقبل.

وقد رسم التعبير بـ "أنلزمكموها" مع الاستفهام بـ "أرأيتم" التقريري صورة شاخصة؛ لأن الكلمة تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ويشدون عليه وهم نافرون، ودخول الاستفهام على المضارع هنا إنكار أصل الإلزام ولما كانوا منكبين فناسب جرس العبارة رسم حالتهم بالحروف، فاللفظ محمل بقيم العسر، فأنت لا تكاد تخرج من عسر حتى تدخل في آخر تتمنى عدم النطق بها أصلًا.

ثالثًا: التعبير بالجملة الاسمية واسم الفاعل "وانتم لها كارهون" إشارة إلى أفعالهم أفعال من كراهته لها ثابتة مستحكمة، وكأنه لم يكن مأمورًا بالقتال، وهي كناية عن أنهم معاندون مع قطع النظر عن الجهاد وغيره، فإن كان الأنبياء مأمورون بالمجادلة الحسنة للمعاندين إلا أنها لا تفيد لا الإلزام الظاهر مع الإنكار والكراهة في الباطن، بل هي حوار عقلي يرجي منه اقتناع المجادل بالحجة الواضحة البينة، التي وهبها الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ .

ثانيًا: المكرة "الفاعل".

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

وبإمعان الفكر في النظم البلاغي للآية فقد بدأت بـ:

أولًا: بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾؛ لأن كلمة "لو" تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، أي: لو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه؛ ولكنه ما فعل ذلك؛ لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل الإلجاء لا ينفعه، ولا

(١) يونس: ٩٩ - ١٠٠.

يفيده فائدة، ومن ثم لو شاء ربك حصول الإيمان لهم لخلق الإيمان فيهم، لكنه ما خلق الإيمان فيهم، فدل على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم، وهو المطلوب إذن أفاد التعبير بلو استحالة تلك المشيئة، وحصول إيمان أهل الأرض بالكلية، فدل هذا على أنه سبحانه ما أراد الكل.

وإذا كان هذا تقدير الله لعباده وأكرامه لهم حتى يؤمنوا به عن قناعة وحب، قناعة بما بين أيديهم من آيات ومظاهر قدرته وعظمته، ثم تجليه بنعمة عليهم مما يسبغ عليهم حباله وقناعة به، فكيف إذن لعبد مهما كانت مكانته الدينية أن يلزم الناس ويجبرهم على الإيمان بالله.

الاستفهام ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ وفيه عدة قضايا بلاغية منها:

١- همزة الاستفهام: المفيدة للإنكار والإبطال. فلم يخرج كل من تكلم في هذا التقديم، كابن الزمكاني والحلي والقزويني والعلوي والتفتازاني، عما قاله الجرجاني وتابعه في تطبيقه الزمخشيري في كون الهمزة للإنكار تختص من بين أدوات الاستفهام بدلالاتها^(١).

ويقول ابن يعقوب المغربي: تكون الهمزة لإنكار ما يليها، وإما غيرها من أدوات الاستفهام فالإنكار إنما هو فيما يطلب بها فتكون "هل" لإنكار النسبة^(٢).

ويرى صاحب مفتاح العلوم أن هذه المعاني — يعني أدوات الاستفهام — كثيراً ما يتولد منها من المعاني بمعونة قرائن الأحوال، مثل: كم تدعوني؟ للإنكار، وكيف تؤذي أباك؟ للإنكار والتعجب والتوبيخ^(٣)، ويضرب ابن الناظم مثالا للوجود والإنكار قوله: متى قلت هذا؟ وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ

(١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة ١٣٥، وينظر التبيان في علم البيان المطلاع على إعجاز القرآن ٧١ - ٧٥، وينظر حسن التوسل إلى صناعة الترس، ١٥٠ - ١٥١، وينظر الإيضاح في علوم البلاغة ١٣٤ - ١٣٥، وينظر الطراز ٢٠٥/٢ - ٢٠٦.

(٢) ينظر مواهب الفتاح — شروح التلخيص ٢٦٩/٢.

(٣) ينظر مفتاح العلوم ٥٣٧ - ٥٣٨.

نَفْسُهُ^(١) أي لا يرغب^(٢)، إذا يجيء الاستفهام مع "من" مرادًا به الإنكار والتوبيخ فلا يكون له جواب، بل هو بمعنى النفي ولذلك وقعت بعده "إلا" في بعض المواضع^(٣).

ولم يخرج البلاغيون المحدثون عما ذكر في تعدي الاستفهام عن مورد الحقيقة إلى إفادة الإنكار وما يجب فيه من وقوع المنكر بعد همزة الاستفهام التي يكون عليها، منهم الدكتور عبد العزيز عتيق^(٤)، والدكتور درويش الجندي^(٥)، والمراغي^(٦)، وغيرهم.

ويرى الدكتور قيس إسماعيل أن هذا الترتيب الذي قرره البلاغيون المتقدمون في أدوات الاستفهام المستعملة في معنى الإنكار أو التقرير كان يستند إلى ما قرره النحويون من جواز تقديم الاسم والفصل بين "الهمزة" و"الفعل" وعدم جواز ذلك في غيرها من أدوات الاستفهام^(٧).

٢- تقديم المسند إليه "أنت" على المسند "تكراه". يدل على أن الفعل يمكن حصوله من غيرك أنت؛ لأن الله وحده هو القادر على ذلك وليس أنت ولا غيرك^(٨)، ولهذا كان الخطاب بـ "أفأنت" بدلاً من أنت إذ جاء في سة مواضع بهذه الصيغة فقال: أفأنت، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٩).

(١) سورة البقرة: ١٣٠.

(٢) ينظر المصباح ١٥١ - ١٥٢.

(٣) ينظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ق ١، ٢٨٢/٣.

(٤) ينظر في البلاغة العربية، علم المعاني ١١١ - ١١٤.

(٥) ينظر علم المعاني، ٥٣.

(٦) ينظر علوم البلاغة، ٦٩.

(٧) ينظر أسالي الطلب، ٣٥٢.

(٨) نم الدرر، ج ٣، ص ٤٩٠ - ٤٩١، والكشاف، ج ١، ص ، والمحزر الوجيز، ج ، ص ،

والبحر المحيط، ج ، ص ، وروح المعاني للأوسى ج ١١، ص .

(٩) يونس: ٤٢.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٥).

يقول البيضاوي: وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء، وإبلاؤها حرف الاستفهام الإنكاري، وتقديم الضمير على الفعل، للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه فضلاً عن الحدث والتحريض عليه.

٣- والعدول عن "أفأنت تكره الناس" إلى "أفأنت تكره". والعدول لعن "أفأنت تكره" إلى "أفأنت تكره"؛ لبيان ثبات النفي وإنكار مبدأ الإكراه أو الاستكراه.

مما سبق يمكن القول: إن الله لا يشاء الإكراه في دينه وعليه أيضاً لمخالفته للحكمة الإلهية التي بنى عليها أساس التكوين والتشريع: "أفأنت تكره الناس" أي على ما لم يشأ الله منهم: ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦)، وفيه تسليية له — صلى الله عليه وسلم — ترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

(١) يونس: ٤٣.

(٢) يونس: ٩٩.

(٣) الفرقان: ٤٣.

(٤) الزمر: ١٩.

(٥) الزخرف: ٤.

(٦) البقرة: ٢٧٢.

(٧) الشعراء: ٣.

يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ^(١)، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢)، بإرادته وتوقيفه، فلا تجهد نفسك في هداها، فإنه إلى الله وحده.

ومما يؤكد نفي الإكراه أو الإلزام تحديد مهمة الرسول - ﷺ - إذ تحدت وظيفته تحديداً واضحاً، لا لبس فيه ولا غموض في كثير من النصوص القرآنية المتكررة، بحيث منعت الخلط أو التداخل بينها وبين القدرة الإلهية وحجبت عن الرسول بأمر رباني مهمة محاكمة الناس أو محاسبتهم والقصاص منهم، أو حتى إن يكون عليهم حفيظاً ورقياً ووكيلاً، إنما أناط رب العزة كل هذه المسائل لنفسه وأجلها إلى يوم آخر هو يوم الحساب، فوظيفة الرسول كما وردت في الآيات تتركز في أربعة مجالات أساسية هي: التبشير والإنذار والبلاغ والتذكير، وفي الكتاب العزيز سبل من النصوص القرآنية تتحدث عن هذا المعنى، ومنها: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَى﴾^(٧).

لاحظنا أن القرآن يزخر بنصوصه الكثيرة والمتكررة بهدف التأكيد على تحديد وحصر مهمة الرسول ووضع الخط الفاصل بينها وبين القدرة الإلهية بحيث لا يمكن تجاوزها أو العبور من تلك الوظيفة إلى قدرة الإله ومنعاً لأي التباس يحصل بين

(١) فاطر من الآية ٨.

(٢) يونس: ١٠٠.

(٣) هود: ٢.

(٤) النحل: ٣٥.

(٥) الإسراء: ١٠٥.

(٦) الأنعام: ٤٨.

(٧) طه: ٢ - ٣.

المجالين بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْذُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٦).

رابعاً: وسائل تنفيذ الإكراه: وهي متعددة ومنها القسر والإكراه والتهديد بالإيذاء أو القتال أو القتل وسيكتفى بالبحث بذكر آيات وسيلة القتال وتقسيمها لثلاثة أقسام، هي:

القسم الأول : آيات الجهاد:

وسنذكرها مرتبة بحسب وروده في المصحف وليس بترتيب النزول؛ لأن هذا يحتاج إلى جهد كبير كبير، وإفراد صفحات متعددة، وفي الوقت نفسه تشغل الذهن، والقارئ معاً عن الهدف المقصود، وقد قصدنا فقط إكمال الصورة حتى تتضح للقارئ، ويتبين منها أنها لم تأت أو أمر صماء، بل جاء كل أمر أو خبر فيها مصحوباً بالعلة والتبرير، لعل العقل الراجح يدرك منهج القرآن في الإقناع وليس في الفرض والإجبار.

(١) الرعد: ٤٠.

(٢) المائدة: ٩٩.

(٣) آل عمران: ٢٠.

(٤) النساء: ٨٠.

(٥) الغاشية: ٢١ — ٢٢.

(٦) يونس: ١٠٩.

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْخَلَّوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤).

٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْرَضْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٥).

٦- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٦).

٧- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٧).

(١) البقرة: ٢١٨.

(٢) آل عمران: ١٤٢.

(٣) النساء: ٩٥.

(٤) المائدة: ٣٥.

(٥) الأنفال: ٧٢.

(٦) الأنفال: ٧٤.

(٧) الأنفال: ٧٥.

٨- قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

٩- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٢).

١٠- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

١١- قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

١٢- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾^(٥).

١٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٦).

١٤- قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٧).

(١) التوبة: ١٦.

(٢) التوبة: ٢٠.

(٣) التوبة: ٢٤.

(٤) التوبة: ٤١.

(٥) التوبة: ٤٤.

(٦) التوبة: ٧٣.

(٧) التوبة: ٨١.

١٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(١).

١٦- قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

١٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

١٨- قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٤).

١٩- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(٥).

٢٠- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

٢١- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٧).

٢١- قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٨).

(١) التوبة: ٨٦.

(٢) التوبة: ٨٨.

(٣) النحل: ١١٠.

(٤) الحج: ٧٨.

(٥) الفرقان: ٥٢.

(٦) العنكبوت: ٦.

(٧) العنكبوت: ٦٩.

(٨) محمد: ٣١.

٢٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(١)

٢٤- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٢)

٢٥- قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣)

٢٦- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٤)

ثانيًا: آيات القتال "أو القتل":

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥)

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٦)

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) الممتحنة: ١.

(٣) الصف: ١١.

(٤) التحريم: ٩.

(٥) البقرة: ١٧٨.

(٦) البقرة: ١٩٠.

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ ابْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

٥- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

٦- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

٧- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّعَتْنَا فِي تَقَاتُلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٥).
[آل عمران : ١٣].

٨- ﴿وَلَنْ يَكُنَّ فِتْنَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَتَمِّمَةٌ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٦).
[آل عمران : ١٥٧].

٩- ﴿وَلَنْ يَكُنَّ مَتَمِّمَةٌ أَوْ فِتْنَةٌ لِبَالِي اللَّهِ تَحْشُرُونَ﴾^(٧). [آل عمران : ١٥٨].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾^(٨). [آل عمران : ١٦٧].

(١) البقرة: ١٩١.

(٢) البقرة: ١٩٣.

(٣) البقرة: ٢١٦.

(٤) البقرة: ٢٤٤.

(٥) آل عمران: ١٣.

(٦) آل عمران: ١٥٧.

(٧) آل عمران: ١٥٨.

(٨) آل عمران: ١٦٧.

١١- قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١). [آل عمران : ١٩٥] .

١٢- قوله تعالى: ﴿فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢). [النساء : ٧٤] .

١٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(٣). [النساء : ٧٥] .

١٤- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(٤). [سورة النساء : ٧٦] .

١٥- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا ت ظَلَمُونَ فِتْيَانًا﴾^(٥). [النساء : ٧٧] .

١٦- قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا﴾^(٦). [النساء : ٨٤] .

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) النساء: ٧٤.

(٣) النساء: ٧٥.

(٤) النساء: ٧٦.

(٥) النساء: ٧٧.

(٦) النساء: ٨٤.

١٧- قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَٰلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١). [النساء : ٨٩] .

١٨- قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَّا رَدُّوا إِلَيَّ الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾^(٢). [النساء : ٩١] .

١٩- قوله تعالى: ﴿فَلَم تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣). [الأنفال : ١٧] .

٢٠- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤). [الأنفال : ٣٩] .

٢١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٥). [الأنفال : ٦٥] .

٢٢- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٦). [التوبة : ٥] .

٢٣- قوله تعالى: ﴿وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أِيمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَٰ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾^(٧). [التوبة : ١٢] .

(١) النساء: ٨٩.

(٢) النساء: ٩١.

(٣) الأنفال: ١٧.

(٤) الأنفال: ٣٩.

(٥) الأنفال : ٦٥ .

(٦) التوبة: ٥.

(٧) التوبة: ١٢.

٢٤- قوله تعالى: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أُولَٰ مَرَّةٍ اتَّخَسْتُوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١). [التوبة : ١٣] .

٢٥- قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَىٰ يَدِهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٢). [التوبة : ١٤] .

٢٦- قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٣). [التوبة : ٢٩] .

٢٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤). [التوبة : ٣٦] .

٢٨- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِذَا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥). [التوبة : ١١١] .

٢٩- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٦). [التوبة : ١٢٣] .

(١) التوبة: ١٣.

(٢) التوبة: ١٤.

(٣) التوبة: ٢٩.

(٤) التوبة: ٣٦.

(٥) التوبة: ١١١.

(٦) التوبة: ١٢٣.

٣٠- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(١). [الحج : ٥٨] .

٣١- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَاِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٢). [محمد : ٤] .

٣٢- قوله تعالى: ﴿يُوقِلُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَّا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ^(٣). [محمد : ٢٠] .

٣٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُوعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤). [الفتح : ١٦] .

٣٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٥). [الحديد : ١٠] .

٣٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾^(٦). [الصف : ٤] .

(١) الحج: ٥٨.

(٢) محمد: ٤.

(٣) محمد: ٢٠.

(٤) الفتح: ١٦.

(٥) الحديد: ١٠.

(٦) الصف: ٤.

٣٦- قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١). [الممتحنة : ٨] .

٣٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢). [الممتحنة : ٩] .

ثالثاً: النفير:

١- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣). [التوبة : ٣٨] .

٢- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعِيضٍ﴾^(٤). [النساء : ٧١]

٣- قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥). [التوبة : ٣٩] .

٤- قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نَلَّكُم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٦). [التوبة : ٤١] .

٥- قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٧). [التوبة : ٨١] .

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) الممتحنة: ٩.

(٣) التوبة: ٣٨.

(٤) النساء: ٧١.

(٥) التوبة: ٣٩.

(٦) التوبة: ٤١.

(٧) التوبة: ٨١.

٦- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١). [التوبة : ١٢٢].

هذه آيات الجهاد والقتال والنفير لم نجد فيها إكراهًا على عقيدة ولا قهرًا على دين، بل كل آية مقيدة بقيد ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، وعلى القارئ الفطن المتدبر لآيات القرآن الكريم والواعي بها أن يقرأ الصورة مكتملة لا مجزأة، قراءة مبرأة من كل هوى لا قراءة تعضية يأخذ فيها ما يشاء ويترك ما يشاء، فلا يعطي للقرآن حقه من الجلال والهيبة التي يستحقها باعتباره كلام الله الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلف، تنزيل من حكيم حميد.

الخاتمة:

عندما تدرس البلاغة في إطار النص الكامل قرأنا كان أو شعراً أو نثراً، فإنها حينئذ تكون وسيلة مثمرة لتنمية المواهب الأدبية وصقل الملكات النقدية، ويظهر هذا جلياً عند الأدباء النقاد الذين شقوا لأنفسهم طريقاً بعيداً عن مدرسة السكاكي والخطيب، وتناولوا البلاغة بطريقة مختلفة كابن الأثير في المثل السائر، وابن أبي الأصبع في تحرير التعبير وبديع القرآن وغيرهما من أقطاب المدرسة الأدبية في عرض الفكرة البلاغية، فلقد كانت البلاغة عند هؤلاء موظفة لتوجيه الناثر والشاعر إلى المعايير الموجهة للإبداع، أو النقد، أو على المقاييس المساعدة لمعرفة الإعجاز القرآني، ومن ثم فلا بد من قراءة النصوص القرآنية من خلال الوحدة البنائية لآيات القرآن المجيد، فهي تشكل نجومًا يمثل النجم أو الآية منها وحدة صغرى، وحين يتم تسوير مجموعة من النجوم أو الآيات بسور تتكون السورة، وذلك يعني أن وحدة كبيرة قد تشكلت من هذه الوحدات الصغرى، ومن ثم تكون القراءة التكاملية الشمولية على المستويات الآتية:

(١) التوبة: ١٢٢.

أولاً: المستوى الصوتي: بمعنى ما يترتب عليه تغير المعنى تبعاً للأداء الصوتي، ولعل هذا يظهر من الجانبين الآتيين:

الوقف والابتداء: فقد يتعدد المعنى بحسب الموطن الذي نقف عليه في النص.

ثانياً: المستوى الصرفي: وأما على المستوى الصرفي فيتعدد المعنى، بتغير بنية الكلمة.

ثالثاً: على المستوى التركيبي: فنجد تركيب اللفظ يعطي جمعاً من المعنى يحتملها اللفظ القرآني، وقد يتشكل هذا التنوع من التعدية بأحد حروف المعاني للمفردة القرآنية.

رابعاً: المستوى المعجمي، فهناك ما يعرف بالمشترك اللفظي، فقد يختار اللفظ القرآني لفظة تستخدم لمعنيين أو لثلاثة أو أكثر، وكلها محتملة في النص.

والقرآن، الذي ضم بين دفتيه تلك الوحدات الكبيرة — السور — يشكل الوحدة الكبرى، والإعجاز القرآني، والسياق، والتناسب، والترابط، والنظم ووحدة الهدف والمقصد والغاية، ووحدة المخاطب، ووحدة المتلقي ووحدة المخاطب، كل ذلك وكثير غيره يجعل القرآن، كله كآية واحدة، ويجعل من الآية الواحدة ممثلاً لجملة القرآن المجيد ونموذجاً له، فإذا ذكرت الآية ذكر القرآن، وذكر القرآن يستدعي آياته وسوره والمعاني الغزيرة التي اشتمل القرآن الكريم عليها حتى صار تبياناً لكل شيء، ومعادلاً للكون وحركته بحيث يستوعب هذه الحركة، ويتجاوزها فيمنح الإنسان القدرة على الإحاطة بها، واستيعابها وتجاوزها، وهذه الطاقة اللغوية قد جاءت — والله أعلم — من ذلك التركيب المعجز، والبناء المحكم للقرآن العزيز بآياته وسوره: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١).

* * *

(١) هود: ١.